في الأدب الانجليزي الحديث

بيرون وشلي وكيتس[1]

للأستاذ بشير الشريقي

بيرون Byron وشلي Sheley وكيتس Keats هؤلاء الأقانيم الثلاثة من أعظم شعراء الانجليز وأشهرهم. عاشوا في القرن التاسع عشر الميلادي وامتازوا بشعرهم الوجداني وطريقتهم الخيالية الابتداعية، لم يتكلموا إلا عن مشاهدة وتصور واعتقاد، ولم يتقيدوا تقيد المدرسين بالصناعة اللفظية ولا بالحقائق العلمية

لقد خصت الآلهة الشعراء الثلاثة بأقل نصيب من العمر، فقد كان سن بيرون يوم ثكلته عرائس الشعر ستة وثلاثين عاماً فقط، وشلي ثلاثين، وكيتس ستة وعشرين؛ ولكنهم وإن لم يُنسأ في آجالهم استطاعوا أن يملأوا أرجاء هذا العمر بأوفر نصيب من الشعر القوي والاعتراف الشجي والنسيب الفتي، لقد هتكت عن أنظارهم مسدلات الحجب، فجرى عنهم غير ما في الكتب

اللورد بيرون

١٧٨٨ — ١٨٢٤

إذا كان رأي أدباء اليوم، أدباء القرن العشرين، في اللورد بيرون كرأي معاصريه فيه، وجب أن يعد هذا النبيل الجميل أنبغ شعراء الانجليز من غير نزاع؛ لقد ظفر بشهرة لم يظفر بها أحد سواه، وعلى يديه انتظم الشعر الانجليزي لأول مرة ساحة الشعر الأوربي

في عام ١٨٢٠ نظم لامرتين قصيدة غراء كلها إعجاب ببيرون؛ وكذلك تنبأ ماثيو أرنولد أن الأمة البريطانية يوم تحتفل في ختام عام ١٩٠٠ بذكرى شعرائها الأعلام، شعراء القرن التاسع عشر، سوف تضع اسم بيرون في طليعة عباقرة الشعر

لم يكن بيرون فناناً عظيماً ولا ثاقب النظر، ولم يجد فيه العالم إلا أنموذجاً في صناعة الشعر، ولكنه كان في ذاته صورة مغرية في الربع الأول من القرن التاسع عشر؛ اتحدت شخصيته بشعره لدرجة صعب معها التفريق بينهما، وحتى قالوا: حياة بيرون هي أحسن شعر بيرون؛ وقد تحدر من عائلة تُوُورِث بين أفرادها على ما يظهر ضعف الأعصاب؛ كان والده رجلاً شريراً فظاً، وكانت أمه متقلبة شديدة، وتوفي عمه وهو في سن العاشرة، فانتقل اليه لقب اللوردية، وهكذا لم يكن في ثقافة بيرون ما يعلمه ضبط النفس أو إنكار الذات في سبيل الصالح العام، فثار حين ألقى الى تيار الزمن على مضايقات المجتمع ومضايقات القانون التي صدمته في رغباته الخاصة

لقد وُجد — لا نقول ثقف — في مدرسة «هارو» ومن ثم في «كمبردج»، ثم قام بسياحة استغرقت عامين، واليونان هي التي صيرته شاعراً؛ وحين عاد الى وطنه، وكان قد نشر وقائع رحلته في الفصلين الأولين من كتابه «تشايلد هارولد» Childe Harold، وجد نفسه شاعراً محبوباً مشهوراً

وأصبح بيرون الشاعر الجميل محور الحياة الماجنة في لندن، منغمساً في المآثم واضعاً نفسه بين يدي هواه من النساء، ثم يتزوج في سنة ١٨١٥ بالآنسة ملبانك Milbanke، ولكن تهجره زوجه بعد أن تضع له طفلة وقبل أن يمضي على زواجهما عام واحد، والى الآن لم يقف أحد على السبب الحقيق لهذا الهجران، غير أن الناس انتصروا يومذاك للمادي بيرون، وفي سنة ١٨١٦ ترك زوجها انجلترا الى غير رجعة، فعاش في سويتز رلاند (سويسرا) وإيطاليا ١٨١٦ — ١٨٢٤ ينظم أحسن شعره ويتسلى بصداقة شلي، وينعم منذ ١٨١٩ بأكثر من صداقة الكونتيس كويسيولي Guiccioli

وهنا لا يغرب عن البال أن هذا الشاعر بينما كان يطلب لنفسه لذتها ولهوها ويرى في الأنانية دستور الحياة، نجده قد تأثر الى أقصى حد بالروح الوطني العام الذي انبعث في أيامه في بلاد اليونان، إنها الرغبة في مساعدة الغير على نيل الحرية هي التي رمت به سنة ١٨٢٣ في القضية اليونانية وجعلته يطالب لليونانيين بالاستقلال عن الأتراك

ذهب اللورد بيرون الى اليونان وساعد على إيقاظ شعور القوم الوطني وفي توحيد كلمتهم حتى جعلهم كرجل واحد في معركة الحرية والاستقلال، وفي «ميسولونيا» أصابته الحمى فهدت جسمه الذي أضنته حياة الفوضى التي غرق فيها هذا اللورد الشاب

إن في موته وحيداً في بلاد الغربة ما يحز في القلب، لقد كان أشبه ما يكون بقبس لطيف من نور الشمس الذهبي ألقي وسط العالم في يوم مظلم عاصف

* * *

لشعر بيرون تأثير في القلب، وعلوق بالنفس، لأنه استطاع

(١) مترجم عن كتاب: The Story of English Literature Anna Buckland
وكتاب: Modern Englieh Literature Wyatt Clay

أن يصور به حياته وهى كما رأيت شائقة غاوية ، حياة شاب جميل موسر انغمس فى اللذات وانكب على الملاهى حتى مل وسئم ، حياة لهو ومخاطرة ، يتخللها شك مقلق وتبرم من الأقدار التى قضت على كل طيب وجميل بالانحلال البطىء والموت السريع

وفى الحق كان كل ما أخرجه الشاعر للناس قوياً عجيباً فاتناً من باكورة شعره « ساعات البطالة Hours of Idleness » الى « عروس أبيدوس Bride of Abydos » ، من الفصلين الأولين من « تشايلد هارولد » الى الفصلين الأخيرين منه ، من القصص الشرقية ، الى الأغانى العبرية ، من «سجين تشيلون Prisoner of Chillon » (بونيفار الذى صدّ هجوم دوق سافوى عن جنوه) الى القصيدة الروائية « مانفرد Manfared » التى نظمها فى إيطاليا على نسق رواية « فوست » وذكر فيها السحر والأرواح وخوارق الطبيعة ، من « يوم الحساب » وهى من أقوى الهجاء الحديث الى « الدون جوان » من رثاء تاسو Tasso (الذى اعتقل بتهمة الجنون لأنه أحب ليونورا ابنة الدوق) الى «مارنيو فاليرو Marino Faliero » المأساة التاريخية — كان يرافق عبقرية بيرون سهولة تامة وقدرة عجيبة فى التعبير عما يجيش به صدره

وهنا علينا أن نذكر أن فى اللورد بيرون الفنان ، عللاً كثيرة ، فهو لا يكاد يحسن صناعة الشعر ولا ربط الفكر ولا اختيار العناوين ، ذو أسلوب بسيط مضطرب ، ولكن على الرغم من كل ذلك فان وليام فورس يقول عنه إنه أعظم ذخيرة أدبية فى هذا القرن التاسع عشر

إنه شاعر الحرب ، لهذا سوف لا نقدر على وفاء حقه فى هذه الأيام التى يسود فيها السلام

برسى شيـــلى

١٧٩٢ — ١٨٢٢

ولد شلى عبقرياً مفرداً فلم يكن له مثيل فى بارونية من البارونيات الانجليزية الغنية ، لقد قاوم وهو يافع ، ما كان يسود فى طبقته من آراء وعقائد وتقاليد ، وفى مدرسة « إيتون » وفى جامعة « أكسفورد » كان فى تصادم دائم مع « المحافظين »

نشر عام ١٨١١ مقالاً بعنوان « حاجتنا إلى الجحود » طلب فيه من جميع مدرى الكليات أن ينزلوا إلى مناقشة آرائه وتفنيد هرطقته مما أدى إلى طرده من الجامعة . وفى ذلك العام تزوج بهاريت ويستبرون ، وهى فتاة فى سن السادسة عشرة ؛ ولدت له طفلين ثم هجرها عام ١٨١٤ من أجل مارى كودوين ابنة وليام كودوين الكاتب الروائى والسياسى ؛ وبعد عامين ، حين أغرقت هاريت نفسها فى التيار ، أصبحت مارى كودوين السيدة شلى ولكن محكمة تشانسرى حرمت الشاعر حضانة ولديه

وفى عام ١٨١٨ ترك شلى انجلترا إلى إيطاليا حيث قضى بقية عمره وكان دائم الاتصال باللورد بيرون

* * *

أحسن شعر شلى ظهر فى السنوات الأربع الأخيرة من عمره ، وبعبارة أخرى أن شعره لم ينضج حتى سنة ١٨١٨ ، ومن أقوى وأمتن قصائده الطويلة ، الروايتان الثنائيتان « ميتوس الغير محدود » و « هيلاس » . وتمثل هيلاس يقظة اليونان وتأييد العالم لهم فى ثورتهم على الأتراك

ولكن إذا كانت إجادة شلى تامة فى هذه القصائد الطوال فان ابداعه كان عظيماً كذلك فى مقطعاته الغنائية التى نذكر منها قصيدة « القبّرة » و « الضباب » و « أدونيس » و « غناء كونستانيا » و « الريح الغربية » و « إلى الحرية » و « إلى المساء »

* * *

كان شلى من بين الشعراء أجمعين شاعر المثل الأعلى ، استطاع أن يتصور فى أخلاق الانسان وحياته كمالاً هو أسمى بكثير مما عرف حتى الآن

لقد ثار على كل ما يحط من قدر الانسان ويحول دون تطوره السامى مدفوعاً بحبه العظيم للانسان وإيمانه بزمن آت هو خير من زمانه

وقد أدرك بواسع علمه وثاقب رأيه أن فكرة الانسان عن الله تتناقض كثيراً وفكرة الحق والعدل والحقيقة ، وهكذا يشوه التلوين الانسانى الصورة الالهية كما يشوه زجاج نافذة مصبوغ جسماً تراه من خلاله ، أو كما يوضح شلى ذلك فى قوله :

الحياة أشبه ما تكون بقبة من زجاج كثير الألوان
تلطخ أضواء الأبدية البيضاء
إلى أن يحطمها الموت

فان كنت تود أن تلتقى بهذا الذى تفتش عنه فمت إذن !

تطلع شلى تطلع مشتاق إلى يوم قريب يتحقق فيه المثل الأعلى ، وعلق آمالاً كباراً على الثورة الفرنسية ، ولكنه حين شاهد ما منيت به النظريات السياسية من فشل أحس ببأس مؤلم

لو طال عمر شلى لاعتنق مبادئ « وردزوس » الاصلاحية

ولقال معه إن تقدم الجنس البشرى يتوقف على رقى الفرد وتطوره ، ولكنه عاش حياة قصيرة . ولد عام ١٧٩٢ وغرق عام ١٨٢٢ بانقلاب قاربه أثناء اجتيازه خليج اسبيزا ، ولما أخرجت جثته من البحر أحرقت على الشاطئ بحضور من اللورد بيرون وبعض الأصدقاء ودفن رمادها فى مقبرة البروتستنت فى روما وقد كتب على قبره هذه الكلمة « قلب القلوب »

جون كيتس

١٧٩٥ — ١٨٢١

يرقد كيتس حيث يرقد رماد شلى فى مقبرة البروتستانت فى روما ، وقد نقش على قبره تنفيذاً لرغبته هذه الجملة « هنا يرقد من أشبهت ذكراه سفراً ألقى فى الماء »

ولد من أبوين غير شاعرين ، فكان والده يعمل فى اسطبلات الخيل المعدة للإيجار فى لندن ، ولكن سرعان ما أصبح هذا الشاعر « اللندنى » شاعر اليونان الحديث ، سرعان ما أصبح هذا الطبيب « تحت الثمرين » رسول الجمال ، وموجد المدرسة المنسوبة خطأ الى تنسون Tenyssonian School

اهتم كيتس بدراساته الطبية ، ولكنه لم يجد لها طعماً ، فهجرها عام ١٨١٧ وهو العام الذى ظهرت فيه مجموعته الشعرية الأولى . وفى عام ١٨١٨ ظهرت له قصيدة « أنديميون Endymion » فانتقدتها المجلة « الفصلية » ومجلة « الغابة السوداء » انتقاداً لاذعاً سفيهاً آلم الشاعر كثيراً ، ولكن هذا الظلم الأدبى ليس هو الذى عجل بموت كيتس كما ظن شلى ، وإنما داء السل هو الذى كان علة موته الباكر

ظهر أجود شعره عام ١٨٢٠ ، وفى ختام هذا العام رحل الى « نابلز Naples » يرافقه صديقه « سيفرن » الذى وقف على العناية به امرأة طيبة ، ظلت مخلصة فى خدمته الى أن توفاه الله فى روما فى شهر شباط سنة ١٨٢١

* * *

لقد نضجت عبقرية كيتس بسرعة مدهشة كما نضجت عبقرية شلى ، وعلى الأخص ذوقه الفنى إذ سرعان ما صلح ، وسرعان ما كمل

قد تكون قصيدة « أنديميون غنية فى الكلمات وفى الصور ، أما فيما عدا ذلك فلم تكن بذات خطر . إنها تظهر رغبة الشاعر فى جمال الأسلوب فحسب . ولكن إن نحن انتقلنا الى مقطوعاته اليونانية الأخيرة التى وصفها بيرون بأنها « سامية سمو ايشيلوس » أدركنا الفارق العظيم بين شعره الأول وشعره الآخر الذى منه « لميا Lamia » وهى قصة شاب اقترن بأفعى متخذة صورة امرأة جميلة ، و « ايزابيلا » التى تكشف لنا عن مقدرة كيتس التامة فى تأليف القصص الشعرية ، و « الأناشيد الستة » الباقية على الزمن

وما الذى كان ليعجز عبقرية كيتس لو قدر لها أن تعيش ؟ إن موته المبكر كان أعظم نكبة حلت بالشعر الأنجليزى ، لقد استطاع أن يتعلم من فنه ومرانه وجده خلال البرهة التى مرت بين نظمه « لأنديميون » ونظمه « الأناشيد الستة » ما لم يتعلمه شاعر انجليزى آخر فى مثل هذه الفسحة من الزمن

* * *

لكى نتفهم نفسية هذا الشاعر ننقل هنا بعضاً من أقواله :

« أنا رجل إحساس أكثر منى رجل تفكير »

« ليس فىّ حس يمكن أن يخضع للجمهور أو لأى شئ فى الوجود ، إنما يأسرنى الكائن الخالد ، والجمال الخارق ، وذكرى الرجال العظام »

« لم أستطع أن أعيش من غير حب أصدقائى ، وإنى لأقفز إلى أسفل جهنم من أجل الصالح العام ، ولكنى أكره الشهرة التى تقزز النفس . »

« قد سبب لى نقدى لنفسى من الألم مالم يسببه نقد المجلة « الفصلية » أو نقد مجلة « الغابة السوداء »

« حين أشعر بأنى على حق أحس بنشوة طرب لا أحس بها حين يثنى علىّ الناس »

« أرى أنه لا يوجد مطلب يستأهل الطلب ، اللهم فكرة عمل الصالحات »

« ليس أمامى سوى طريق واحدة »

« أحسن أنواع الشعر ، هو ما أهتم له وما أعيش له »

« سوف لا أخلف ورائى حين أموت عملاً خالداً ، سوف لا أخلف ما يثير إعجاب الأصحاب عند ذكراى ؛ ولكنى هممت بالجمال كما ينبغى »

الجمال الحقيقة ، والحقيقة الجمال ، هذا كل ما يجب أن تعرفه فى الدنيا وكل ما تحتاج إلى معرفته

(شرق الأردن) بشير السريفى